الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

القارئ:

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول في كتابه: [**القواعد الحِسَان المتعلقة بتفسير القرآن**]:

القاعدة الثامنة عشرة:

في كثيرٍ مِنَ الآيات يُخبِرُ بأنَّهُ يهدي مَنْ يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وفي بعضها يذكرُ مع ذلك الأسباب المُتعلِّقَة بالعبد الموجبة للهداية، أو الموجبة للإضلال، وكذلكَ حصولُ المغفرة وضدِّها، وبَسْطُ الرزقِ وتقديرِه، وذلكَ في آياتٍ كثيرة، فحيثُ أنّهُ أخبرَ أنه يهدي مَنْ يشاء ويُضلُّ مَنْ يشاء، ويغفرُ لِمَنْ يشاء، ويُعذّبُ من يشاء، ويَرْحمُ من يشاء، ويَبْسطُ الرزقَ لِمنْ يشاء ويقترُه على منْ يشاء.

دلَّ ذلك على كمالِ توحيدِهِ وانفرادهِ بخلقِ الأشياء، وتدبيرِ جميعِ الأمور، وأنَّ خزائنَ الأشياءَ بيدهِ، يُعْطي ويَمْنع ويَخفضُ ويَرْفع، فيقتضي مع ذلكَ مِنَ العبادِ أنْ يعترفوا بذلك، وأن يُعلِّقُوا أملهم ورجاءهم بِهِ في حُصولِ ما يُحبّون منها، وفي دفعِ ما يكرهون، وأنْ لا يسألوا أحدًا غيرهُ، كما في الحديثِ القُدْسي: «**يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**» إلى آخره.

وفي بعضِ الآياتِ: يذكرُ فيها أسبابَ ذلك، ليعرفَ العبادُ الأسبابَ والطرقَ المُفضية إليها، فيسلكوا النّافع ويَدَعُوا الضّار، كقولهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٥-١٠]؛ فبيَّن أنَّ أسبابَ الهداية والتّيسيرِ تصديقُ العبدِ لربّه وانقيادهِ لأوامرهِ، وأنَّ أسبابَ الضلالِ والتّعسير ضِدُّ ذلك، وكذلك قولهِ تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٦]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

ﭐلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٠]؛ فأخبرَ أنَّ الله يهدي مَنْ كانَ قصدهُ حسنًا، ومَنْ رَغِبَ في الخيرِ واتّبعَ رضوانَ الله، وأنّهُ يُضِلُّ مَنْ فسقَ عن طاعة الله تعالى، وتولَّى أعداءهُ الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية ربِّ العالمين.

وكذلكَ قولهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [سورة الصف، من الآية:٥]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١١٠].

الشيخ:

هذه القاعدة الثامنة عشرة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**في كثيرٍ مِنَ الآيات يُخبِرُ بأنّهُ يهدي مَنْ يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وفي بعضها يذكرُ مع ذلك الأسباب المُتعلِّقَة بالعبد**)؛ هذه قاعدة عظيمة ونافعة مستمدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في باب الإيمان بالقدر وحقيقة التوكل على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأن حقيقة ذلك تتم بأمرين دل عليهما كتاب الله:

الأول: أن الأمور كلها بمشيئة الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

والأمر الثاني: أن العبد مطالبٌ مع ذلك بفعل الأسباب، والإتيان بالأمور التي تتحقق بفعلها مصالحه وتندفع بها عنه الشرور، فهذه حقيقة التوكل على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرر هنا قاعدة في الباب، ذكر أولًا أن القرآن فيه آياتٌ كثيرة جدًا فيها ربط الأمور بالمشيئة في كل جانب من جوانب العبد الأمر مربوطٌ بمشيئة الله، الصحة، والمرض، والغنى، والفقر، والهداية، والضلال، والعطاء، والمنع، والخفض، والرفع، كل ذلك بمشيئة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا إذا قرأت القرآن تجد آيات كثيرة تُقرر لك ذلك، ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٢]، يعز من يشاء، يذل من يشاء، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٤٩]، ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٤٢]، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٢٧]، ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٨]، آيات كثيرة.

أذكر أنني عددتها مرة عن طريق بعض المعاجم فوجدتها تبلغ في القرآن الكريم ما يزيد على الأربعمائة موضع في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كلها ربط للأشياء بالمشيئة، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٦]، فالأمور كلها مربوطة بمشيئة الله، ولا يمكن أن يكون في هذا الكون الذي خلقه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأوجده إلا أمر شاءه سبحانه، لا يمكن أن يقع في

مملكته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفي ملكه شيءٌ لم يشئه، أو شيءٌ لم يخلقه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن قال بخلاف ذلك فقد ادعى وجود خالقٍ مع الله وهذا شركٌ في الربوبية، وضلالٌ بيِّن.

ولهذا يعتقد المسلم موجب هذه الآيات، ويؤمن بأن الأمور كلها بمشيئة الله الرزق، الغنى، الفقر، الصحة، المرض، الضحك، البكاء، الرضا، السخط، الهبة، المنع، كل شيء من الله، وكل شيء بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا أصل لا بد من الإيمان به، ولا بد أيضًا أن يضم إلى هذا الأصل فعل السبب، أن يباشر العبد فعل الأسباب، ولهذا دلت نصوصٌ أخرى كثيرة في القرآن على أن العبد له مشيئة، ليس العبد مجردًا من المشيئة لا مشيئة له، بل له مشيئة جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد مشيئة، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد، من الآية:١٠]، طريق الخير وطريق الشر، وجعل له مشيئةً يختار بها إما هذا أو ذاك، إما أن يختار طريق الضلال، أو يختار طريق الكفر، إما أن يختار طريق الهداية، أو يختار طريق الضلال، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [سورة التغابن، من الآية:٢]، منهم من اختار طريق الهداية، ومنهم من اختار طريق الضلال والكفر، فعل ذلك العبد باختياره ومشيئته.

ولهذا النصوص دلت على ثبوت المشيئة للعبد، ومن يجحد وجود مشيئةً للعبد يجحد ما دل عليه القرآن، وما دل عليه أيضًا واقع الإنسان، والقرآن فيه آياتٌ كثيرة تُثبت المشيئة للعبد، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٨]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾؛ أثبت للعبد مشيئةً؛ فالمشيئة ثابتة للعبد دل عليها القرآن، وأيضًا دل عليها واقع الإنسان في تحركاته، وتنقلاته، وذهابه، وإيابه، يعرف من نفسه أنه يتحرك بالمشيئة جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه.

وهذه المشيئة التي في العبد هي مخلوقة لله من جملة المخلوقات التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما ينشأ عن هذه المشيئة التي هي مخلوقةٌ لله أيضًا هو مخلوقٌ لله، ولهذا يجب أن نعتقد أن العبد ومشيئته وما ينشأ عن هذه المشيئة من أفعالٍ وأعمال كل ذلك خلقٌ لله، كل ذلك خلقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو معنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦]، أي: خالق المخلوقات، وخالق الإنسان، وخالق مشيئة الإنسان، وخالق ما ينشأ عن مشيئة الإنسان، كل ذلك مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه تعالى خالق كل شيء، خالقٌ للأشخاص والذوات، وخالقٌ لما يقوم في الأشخاص والذوات من صفاتٍ وأعمالٍ وحركات، كل ذلكم مخلوقٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا العبد له مشيئة، ومشيئة العبد ليست مشيئةً مستقلة، بل هي تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٨]، فالعبد مشيئته تحت مشيئة الله؛ إذًا المشيئة ثابتة للعبد، ودل على ثبوتها القرآن وواقع العبد، وأيضًا في الوقت نفسه مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نافذة في كل شيء، وهي نافذة في العباد وأعمالهم، وحركاتهم وأوصافهم، إلى غير ذلك، فالله سبحانه له المشيئة النافذة وله القدرة الشاملة، ما شاء الله كان، لا دافع له ولا راد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيءٍ قدير لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فإذًا يجب علينا أن نؤمن بهذا وأن نؤمن بهذا، نؤمن بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النافذة، ونؤمن بمشيئة العبد التي هي تحت مشيئة الله، ومن جحد مشيئة الله ضل، ومن جحد أيضًا مشيئة العبد ضل، والحق قوامٌ بين ذلك، الحق إنما هو بإثبات هاتين المشيئتين: مشيئة الله النافذة في كل شيء، ومشيئة العبد التي هي تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الباب ضل فيه طائفتان، طائفة أنكرت وجود مشيئةٍ للعبد، قالت: العبد ليس له مشيئة، وليس عنده إرادة ولا مشيئة، بل قالوا: إن العبد في حركاته وتنقلاته، وأعماله، وأفعاله كالورقة في مهب الريح، ومعلومٌ أن الورقة تتكفئها الرياح يمينًا وشمالًا، وتتطاير بها هناك وهناك بدون اختيار من الورقة ولا مشيئة، قالوا: العبد كذلك، يتحرك ويتنقل ليس له مشيئة، وهذا من أبيَّن الباطل قولٌ ظاهرٌ بطلانه؛ لأنه مصادم لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومصادم أيضًا لما يعلمه كل إنسانٍ من نفسه، مصادم للآيات التي تُثبت المشيئة للعبد، وأيضًا مصادم للشيء الذي يعلمه الإنسان من نفسه، ولهذا قال العلماء: إن أهل هذا المذهب لا يطبقون هذا المذهب في كل شيء، بل يطبقونه في أمورٍ لهم فيها أهواء، لكنهم لا يطردونه ولا يطبقونه في كل شيء، ولهذا صاحب هذا المذهب لو لقيه شخص واعتدى عليه، وصفعه حتى أسقطه على قفاه، وقال: أنا كالورقة في مهب الريح اعذرني ، اعذرني الذي حصل مني ليس بمشيئتي، يقبل؟ ما يمكن يقبل، بل يخاصم، وينازع، ويجادل، فصاحب هذا المذهب من دلائل بطلان مذهبه أنه متناقضٌ فيه لا يطبقه في كل شيء، ولهذا قالوا من دليل فساد المذهب التناقض فيه، من دليل الفساد في المذهب التناقض في المذهب تارةً يثبت وتارةً ينفي، فهذا مذهبٌ فاسد الذي يجحد المشيئة في العبد مذهبه من أبين ما يكون فسادًا، فالمشيئة ثابتة للعبد، العبد له مشيئة.

فريق آخر من فرق أهل الضلال جحدوا نفوذ مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أعمال العباد، وقالوا: إن الله لا مشيئة له فيما يتعلق بأعمال العباد، وقالوا: إن العبد هو الخالق لفعل نفسه، وهذا أيضًا من أبيَّن ما يكون في الضلال

والفساد؛ لأن قائل هذا المذهب، أو قائل هذا القول ادعى وجود خالقٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو بهذا المذهب يقول: إن الله خالق الإنسان، والإنسان هو الخالق لفعل نفسه، ولهذا سماهم السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى مجوس هذه الأمة، لقولهم بالخالقين الله خالقٌ للإنسان، والإنسان خالقٌ لفعل نفسه.

فإذًا جحد مشيئة العبد ضلال، وجحد مشيئة الرب أيضًا ضلال، والحق بين ذلك، نثبت مشيئة الله النافذة في كل شيء، ونثبت للعبد مشيئةً هي تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من خلال إثباتنا لهذين الأمرين نحصل على العقيدة الصحيحة الصافية النقية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في هذه الباب، وهذا ما سيبينه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه القاعدة الجليلة.

قال: (**في كثيرٍ مِنَ الآيات يُخبِرُ بأنّهُ يهدي مَنْ يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وفي بعضها يذكرُ مع ذلك الأسباب المُتعلِّقَة بالعبد الموجبة للهداية، أو الموجبة للإضلال، وكذلكَ حصولُ المغفرة وضدِّها، وبَسْطُ الرزقِ وتقديرِهِ**)؛ كل هذه الأمور هي من هذا القبيل، يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيات أن هذا كله بمشيئته ويذكر في آياتٍ أخرى أسباب يفعلها العبد يُحصل بها، وينال بها هذه المطالب، فكيف الجمع بين هذين الأمرين.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وذلكَ في آياتٍ كثيرة، فحيثُ أخبرَ سبحانه أنه يهدي مَنْ يشاء ويُضلُّ مَنْ يشاء، ويغفرُ لِمَنْ يشاء، ويُعذّبُ من يشاء، ويَرْحمُ من يشاء، ويَبْسطُ الرزقَ لِمنْ يشاء، ويقتُره على منْ يشاء**)؛ ذكرت لكم أن المواضع التي من هذا القبيل في القرآن أعددتها في بعض المعاجم فزادت على الأربعمائة موضع، وعندما تعرف أن بهذا الحجم، وفي أنواع مصالح العبد وحاجاته الدينية والدنيوية، كل ذلك مربوط بمشيئة.

إذًا تستفيد من هذا فائدة ذكرها الشيخ، قال: (**هذا يدلَّ على كمالِ توحيدِهِ وانفرادِهِ بخلقِ الأشياء**)؛ فهذا يُفيدك أنه لن يحصل لك شيء من صحة، من رزقٍ، من عافية، من هداية، من غنى، إلى آخر ما تريد من مصالح الدين والدنيا لن تحصل شيئًا من ذلك إلا إذا شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأذن به وأراده كونًا وقدرًا، فهذا يدلك على التوحيد، وانفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق، والتدبير، والعطاء، والمنع، والخفض، والرزق وغير ذلك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متفردٌ بذلك كله لا شريك له.

قال: (**دل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبيرِ جميعِ الأمور، وأنَّ خزائنَ الأشياءَ بيدِهِ، يُعْطي ويَمْنع، ويَخفضُ ويَرْفع**)؛ كما قال سبحانه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمن، من الآية:٢٩]، الأمر بيده يُدبر في خلقه، ويتصرف فيهم كما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

قال: (**فيقتضي مع ذلكَ مِنَ العبادِ أنْ يعترفوا بذلك، وأن يُعلِّقُوا أملهم ورجاءهم بهِ في حُصولِ ما يُحبّون منها، وفي دفعِ ما يكرهون، وأنْ لا يسألوا أحدًا غيرهُ**)؛ لأن الأمور كلها بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الهداية والرزق والعطاء وغير ذلك، كل ذلك بيد الله، فنحن نستفيد من ذلك ناحية تعبدية وهي أن نعلق قلوبنا بالله في كل حاجتنا الدينية والدنيوية، متوكلين عليه، مفوضين الأمر إليه، لا نطلب إلا منه، ولا نلجأ إلا إليه، ولا نفزع إلا إليه؛ لأن الأمر بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال أحد السلف: تأملت أبواب الخير، فإذا هي كثيرة، الصلاة، والصيام، والبر وغير ذلك، ووجدت أن ذلك كله بيد الله، فأيقنت أن الدعاء مفتاح كل خير، بمعنى أن أي خيرٍ تريده لنفسك دينيًا أو دنيوي اطلبه من الله، فإن الخير بيده، والعطاء عطاءه، والفضل فضله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**كما في الحديثِ القُدْسي: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»؛ «كلكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم»**، فالأمر كله بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذًا هذا جانب وهو يتعلق بالآيات التي تُثبت أن الأمور كلها بمشيئة الله.

جانب آخر هناك آيات تدل على أن العبد له مشيئة، يقول الشيخ: (**وفي بعضِ الآياتِ: يذكرُ فيها أسبابَ ذلك، ليعرفَ العبادُ الأسبابَ والطرقَ المُفضية إليها، فيسلكوا النّافع ويَدَعُوا الضّار، كما في قولِهِ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٥-١٠])؛ إذًا هذا جانب آخر في الموضوع لا بد أن نقر به وأن نؤمن ألا وهو أن العبد له مشيئة، وأنه أيضًا مطالب بفعل الأسباب التي ينال بها الهداية، وينال بها الرضا، وينال بها التوفيق، وأيضًا مطالب بتجنب الأسباب التي يكون بها الهلاك والردى، وهذا واضح في الآية الكريمة، قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ هذا سبب فعله العبد، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾؛ هذا أيضًا سبب فعله العبد، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾؛ هذه كلها أسباب باشرها العبد بنفسه، قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ إذًا ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أسبابًا يباشرها العبد تُفضي به إلى الهداية وأسبابًا يباشرها العبد تُفضي به إلى الضلال، فإذًا مع إيماننا بأن الأمور كلها بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا بد أن نخطو خطواتٍ في مباشرة الأسباب التي ننال بها الهداية، وأن نتقي أيضًا الأسباب التي تُفضي بنا إلى الضلال والهلاك، قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

(فبيَّن أنَّ أسبابَ الهداية والتّيسيرِ تصديقُ العبدِ لربّه وانقيادِهِ لأمرِه، وأنَّ أسبابَ الضلالِ والتّعسير ضِدُّ ذلك)؛ هذا يعطينا فائدة كبيرة القدر جليلة الشأن في باب التوكل والإيمان بالقدر، وقد جاء في حديثٍ صحيح أن الصحابة سألوا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قالوا: يا رسول الله! هذه الأعمال التي نقوم بها، هل هي أمرٌ قُدر وقضي، أو هو أمرٌ مستأنف أي: لم يقدر ولم يقضى؟ هل هي أمور قُدرت، وقضيت، وكتبت علينا، أم أنه شيء مستأنف لم يُقدر ولم يُكتب؟ قال: «**بل قُدر وقضي**»، قالوا: يا رسول الله فيما العمل؟! ما دام أن الأمور كُتبت وقُدرت وقُضيت ففيما العمل؟ قال: «**اعلموا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له، من كان من أهل الهداية يسره الله لعمل أهل الهداية، من كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وعلى ضوء ما سبق إذا أرد العبد لنفسه الهداية، فماذا عليه؟ أمران لا بد منهما، وأصلان لا بد من تحقيقهما:

الأول: التوكل على الله، وحسن الالتجاء إليه، وطلب الهداية منه؛ لأن الأمر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يقولون: "لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا"، وفي رواية: "ولا تصدقنا ولا صلينا"، فالأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النور، من الآية:٢١]، فالهداية بيده، وهي منته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على من شاء من عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا المجلس الذي أكرمنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في البقعة المباركة صائمين ننتظر موعود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومنه، لولا فضل الله علينا بذلك والله ما اهتدينا إليه، ولولا أن الله يسره لنا وكتبه لنا ما حصل ذلك، لكن الفضل فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والهداية منته جل وعز على من شاء من عبادة، ولهذا يجب أن يعتقد العبد عقيدة راسخة في قلبه أن أمر الهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٦]، ويضل من يشاء، ومن كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له هدايةً لا يستطيع أحدٌ أن يضله كائنًا من كان، ومن كتب الله له ضلالًا لا يستطيع أن يهديه أحدًا كائنًا من كان، ولو كان من أفضل الخلق، قال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة القصص، من الآية:٥٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:١٠٣]، فالهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذًا هذا جانب في الموضوع.

الجانب الآخر: نحن أيضًا مطالبون بأن نباشر الأسباب التي ننال بها الهداية، أعطى، واتقى، وصدق، هذه أسباب نفعلها ونباشرها، لا بد أن يقوم بها العبد فإذًا يُحقق الجانبين فعل الأسباب، والتوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا أن يعطل الأسباب متوكلًا على الله، ولا أيضًا أن يباشر الأسباب تاركًا التوكل على الله، كلٌ من الجانبين خطأ لا بد من فعل الأمرين معًا، نفعل الأسباب، وأن نكون متوكلين على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وانظر الأمرين في دعوة، أو في دعاءٍ عظيم ثابت عن نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سيد ولد آدم وهو في الصحيحين، يقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في دعائه: «**اللهم لك أسلمت**»، هذا سبب الآن، «**وبك آمنت**»، سبب، «**وعليك توكلت**»، سبب، «**وإليك أنبت**»، سبب، «**وبك خاصمت**» سبب، «**أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، فأنت الحي الذي لا يموت**»، لا بد أن تباشر الأسباب، تسلم وتؤمن وتصدق، وتتوكل، وتستعين، وترجو، وتطمع كل ذلك لا بد منه.

وأيضًا مع فعلك لهذه الأسباب تعتقد أن هدايتك بيد الله، وأنه لا يمكن أن يحصل لك شيء من التوفيق والسداد والصلاح إلا بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومشيئته، يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ في أبياتٍ له:

مَا شِئْتَ كَانَ، وإنْ لم أشَأْ ** وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ
خَلقْتَ العِبَاد على ما عَلِمْتَ ** فِي العِلْمِ يَجري الفَتَى وَالْمُسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ، وَهَذا خَذلْتَ ** وهذا أعنتَ، وذا لم تُعن
فَمِنهُمْ شَقِيٌّ، وَمِنْهُمْ سَعِيد ** وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ، وَمِنْهُمْ حَسَنْ

كل هذا بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كل ذلكم بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**وكذلك قولِهِ تعالى**: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾ [سورة المائدة، من الآية:١٦])؛ ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾؛ هذا ما هو؟ هذا سبب يفعله العبد، الهداية بيد الله لكن أنت أيضًا مطلوبٌ منك أن تباشر الأسباب، ومن الأسباب التي تباشرها اتباع الرضوان تسلك السبيل الذي يُفضي إليك لنيل رضوان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**وقوله**: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٦])؛ هنا الشاهد: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ الفاسق الذي سلك طريق الفساد استحق أن يضله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأن يكتبه في عداد الفاسقين، قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ نظير قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف، من الآية:٥].

وقال: (﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[سورة الأعراف، من الآية: ٣٠])؛ لماذا؟ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فعلوا هذا السبب، اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله فحقت عليهم بذلك الضلالة؛ لأنهم سلكوا طريقها.

قال: (**فأخبرَ أنَّ الله يهدي مَنْ كانَ قصدهُ حسنًا، ومَنْ رَغِبَ في الخيرِ، واتّبعَ رضوانَ الله، وأنّهُ يُضِلُّ مَنْ فسقَ عن طاعة الله تعالى، وتولّى أعداءهُ الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية ربِّ العالمين، وكذلكَ قولهُ:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[سورة الصف، من الآية:٥]؛ **وقوله:** ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١١٠])؛ لماذا؟ ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[سورة الأنعام، من الآية:١١٠].

ألخص الناحية العملية المستفادة مما سبق، وهي متلخصةٌ لنا في قول نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له**»، نحن مطالبون في هذا الباب أن نعمل بأن نباشر الأسباب التي ننال بها رضا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأن نبتعد عن الأسباب التي تفضي بنا إلى سخط الله، ومطالبون أيضًا في الوقت نفسه أن نسأل الله التيسير والتوفيق والهداية، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

القارئ:

وكذلكَ يذكرُ في بعضِ الآياتِ الأسبابَ التي تُنالُ بها المغفرة والرحمة، ويُستَحَقُّ بها العذاب، كقولهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾[سورة طه، من الآية:٨٢]، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٥٦-١٥٧]، ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٥٦]، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٣٣].

ثمَّ ذكرَ الأسبابَ التي تُنالُ بها المغفرة والرحمة، وهي خِصالُ التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٢٠٤]، وأعمُّ مِنْ ذلكَ كلّه قولهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٣٢]؛ فطريقُ الرحمة والمغفرة سلوكُ طاعة الله ورسولهِ عمومًا، وهذه الأسبابُ المذكورة خصوصًا.

الشيخ:

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلكَ يذكرُ في بعضِ الآياتِ الأسبابَ التي تُنالُ بِها المغفرة والرحمة، ويُستَحَقُّ بِها العذابَ)**؛ ذكر أولًا في مقدمة القاعدة أن المغفرة بيد الله يغفر لمن يشاء، والرحمة بيد الله يرحم من يشاء، وهذا جاء في آيات كثيرة جدًا، يقول الشيخ: **(ومع هذا جاء في بعض الآيات ذكر الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، ويستحق بها العذاب)**؛ فإذًا الرحمة بيد الله، والمغفرة بيد الله، والعذاب بيد الله، يعذب من يشاء، يغفر لمن يشاء، يرحم من يشاء، ومع هذا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن الأسباب التي تُنال بها الرحمة، الأسباب التي تُنال بها المغفرة، الأسباب التي يُستحق بها العذاب، فإذًا مع اعتقادنا أن المغفرة بيد الله والرحمة بيده وطلبنا لها منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا أن نباشر الأسباب، وأن نفعل الأسباب التي ننال بها رحمة الله ومغفرته، وقد ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ عديدةٍ في القرآن.

(كقولِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٨٢]**)**؛ هذه أربعة أسباب مطلوبٌ من العبد أن يباشرها لينال بها مغفرة الله، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾؛ التوبة إلى الله وهي سبب يباشره العبد.

الأمر الثاني: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ أي: بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبكل ما أمر عباده بالإيمان به.

السبب الثالث: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: باشر الأعمال الصالحة المقربة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾؛ أي: لزم طريق الهداية واستقام على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذه أربعة أسباب ذُكرت في الآية تُنال بها مغفرة الله جَلَّ وَعَلَا، فالله يغفر لمن يشاء، والعبد مطالبٌ منه أن يباشر الأسباب مع اعتقاده أن الله يغفر لمن يشاء عليه أن يُباشر الأسباب التي يتعرض بها لنيل مغفرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٥٦-١٥٧])؛ هذه أسباب، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ هذه كلها أسباب مطلوبٌ من العبد أن يباشرها وأن يفعلها لينال بها رحمة الله التي وسعت كل شيء.

كذلك قوله: (﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٦])؛ الإحسان سبب يباشره العبد لينال بإحسانه رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن رحمة الله قريبةٌ من كل محسن.

قال: **(وقوله:** ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٣]**)**؛ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾؛ طلب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عباده أن يسارعوا إلى المغفرة، ما نوع هذه

المسارعة؟ مباشرة الأسباب، وفعل الأسباب التي تُنال بها المغفرة مع سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المغفرة وطلب الرحمة منه سبحانه.

قال: (**ثمَّ ذكرَ الأسبابَ التي تُنالُ بِها المغفرة والرحمة، وهي خِصالُ التقوى المذكورة في هذه الآية وفي غيرها**)؛

قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٣-١٣٤]؛ فهذه كلها أسباب مطلوبٌ من العبد أن يباشرها وأن يفعلها لينال بها رحمة الله ومغفرته.

قال: **وقوله**: (﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١٨])؛ هذه أسباب باشروها، وقوله: (﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠٤])؛ الإنصات لكتاب الله من أسباب نيل رحمة الله جَلَّ وَعَلَا.

(**وأعمُّ مِنْ ذلكَ كلّه**)؛ يجمع أي: كلما سبق، (**قول الله تعالى**: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٢])؛ طاعة الله وطاعة رسوله سبب، بل هو أعظم أسباب نيل رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**فطريقُ الرحمة والمغفرة سلوكُ طاعة الله ورسولِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عمومًا، وهذه الأسبابُ المذكورة**)؛ أي: في الآيات المتقدمة، (**خصوصًا**).

القارئ:

وأخبرَ أنَّ العذابَ لهُ أسبابٌ مُتعدِّدةٌ، وكُلّها راجعةٌ إلى شيئين: التكذيبُ لله ورسولِهِ، والتولِّي عنْ طاعة الله ورسولِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:١٥-١٨]، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٤٨].

الشيخ:

أيضًا تقدم في صدر القاعدة قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (**ويُعذّبُ من يشاء**)؛ أي أن العذاب بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعذب من يشاء والأمر راجع لمشيئته، وجاء في آيات أخرى بيان الأسباب التي إذا فعلها العبد وباشرها استحق العذاب، والأسباب التي يستحق بها العبد العذاب كثيرة تراها مبسوطةً في القرآن الكريم، الأسباب التي يستحق بها العبد العذاب كثيرة مبينة في القرآن، وكل سببٍ ذُكر لصاحبه عقوبة إما بالنار، أو سخط الله، أو حلول نقمته،

أو حلول عقوبته، أو لعنته، أو لعن صاحبه وطرده من رحمة الله، هذه كلها أمور وأسباب إن باشرها العبد استحق بها العذاب، وهي من موجبات العذاب، وهي مبينة في القرآن بيانًا مفصلًا.

لكن يقول الشيخ، وهذه فائدة عظيمة عض عليها بناجذيك، يقول الشيخ: أسباب العذاب ترجع إلى أمرين، كل ما بُسط من أسباب العذاب في القرآن الكريم ترجع إلى أمرين، أو إلى شيئين:

(التكذيبُ لله والرسول)؛ هذا أمر.

والأمر الثاني: (والتولِّي عنْ طاعة الله والرسول)؛ فإذًا العذاب يُستحق بـ هذين الأمرين أو بواحدٍ منهما: إما التكذيب لله وللرسول، أو التولي عن طاعة الله وطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بهما معًا، فأسباب العذاب المنوعة التي يستحق بها العبد العذاب راجعة إلى هذين الأمرين.

وجُمع بين هذين السببين في بعض الآيات، منها قوله تعالى: (﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:١٥-١٨]، **وقال**: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٤٨])؛ فذكر جَلَّ وَعَلَا هذين السببين الذين إليهما ترجع أسباب العذاب كلها المبسوطة في القرآن وفي سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

يقابل هذا عند أهل الإيمان ما ذكره الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة في خاتمتها لما ذكر أهل الإيمان قال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥]، ماذا؟ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٨٥]، سماع وطاعة ضد السماع والطاعة التكذيب والتولي، ﴿سَمِعْنَا﴾ هذا يتعلق بالجانب العلمي، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هذا يتعلق بالجانب العملي، ولهذا قابل ذلك عند أهل العذاب التكذيب للجانب العلمي، والتولي في الجانب العملي.

والتوحيد توحيدان: علمي، وعملي، التوحيد الذي خُلقنا لأجله، وأوجدنا لتحقيقه توحيدان: (علمي، وعملي)، جاء بيان العلمي في مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ [سورة الطلاق، من الآية:١٢]،هذا جانبٌ علمي في التوحيد، والجانب العملي في التوحيد في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٥٦]، ولهذا من كذب انتقض توحيده العلمي، ومن ترك الطاعة والعمل وتولى انتقض توحيده العملي، ولا يكون العبد مستحقًا للثواب سالمًا من العذاب إلا بتحقيق التوحيدين العلمي والعملي، العلمي في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص، من الآية:١]، والعملي في سورة

الكافرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة الكافرون، من الآية:١-٢]، ولهذا من كذب خرج من السمع سمعنا، ومن تولى خرج من الطاعة، ولا يكون العبد من أهل الإيمان إلا بالسمع والطاعة، ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾.

فإذًا أسباب العذاب، وموجبات العذاب، وما يستحق به العذاب يرجع إلى هذين الأمرين: (التكذيب لله والرسول، والتولي عن طاعة الله والرسول)، من كذب الله ورسوله انتقض توحيده وانهدم إيمانه، وأيضًا من تولى عن طاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ انتقض إيمانه بذلك بتوليه؛ لأن الكفر منه ما هو تكذيبٌ لله والرسول، ومنه ما هو تولي عن طاعة الله وطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يكون في نفسه مصدقًا بأن الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حق، وأن ما جاء به حق لكنه متولي ومعرض عن طاعة الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لسببٍ أو لآخر.

القارئ:

وكذلكَ يذكرُ أسبابَ الرزقِ، وأنَّه لزومُ طاعة الله ورسولِهِ، والسعي الجميل معَ لزومِ التقوى كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق، من الآية:٢-٣]، وانتظارُ الفرجِ والرزقِ كقولِهِ: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [سورة الطلاق، من الآية:٧]، وكثرة الذِّكرِ والاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ [سورة هود، من الآية:٣]، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [سورة نوح، من الآية:١٠-١١]؛ فأخبرَ أنَّ الاستغفارَ سببٌ يُستجلَبُ بِهِ مغفرةُ الله ورزقهُ وخيره، وضِدُّ ذلكَ سببٌ للفقرِ والتّيسيرِ للعُسْرَى.

وأمثلةُ هذه القاعدة كثيرةٌ، قدْ عرفتَ طريقها فالْزَمْهُ.

الشيخ:

ثم ختم بهذا المثال يتعلق بالرزق، في مقدمة القاعدة قال: (**ويَبْسطُ الرزقَ لِمنْ يشاء، ويقتُره على منْ يشاء**)؛ وهنا ذكر أن في القرآن إشارة إلى أسباب مطلوبٌ من العبد أن يباشرها وأن يفعلها، لا أن يجلس في مكانه معطلًا الأسباب وينتظر أن يأتيه الرزق مع تعطيله للأسباب، هذا تواكلٌ وليس بتوكل، ولهذا قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير**»، ولهذا مطالب العبد مع إيمانه بأن الرزق بيد الله، وأن الله هو الرزاق مطالبٌ أن يباشر الأسباب التي ينال بها الرزق، فلو كان عنده أرض زراعية ويريد أن تُنتج وأن تُثمر من الزروع والنخيل والثمار لا بد أن يضع البذور، وأن يضع النواة، وأن يُسقى الزرع، وأن يباشر الأسباب، أما

أن يعطل الأسباب، ويبقى في مكانة ينتظر أن يأتيه الرزق فهذا مخالف للشرع، ومخالف للفطرة التي فطر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الناس عليها، لا بد أن يباشر السبب.

كذلك لو أنه أراد أن يرزقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذرية والأولاد الصالحين، ولكنه لا يباشر السبب، يقول: أنا لن أتزوج إلى أن أموت، إن كان الله كاتب لي ذرية يحصلون، فهذا تعطيل للأسباب، وهذا نوعٌ من الجنون، وضياع، والحرمان من الخير في الدنيا والآخرة، فالعبد ينبغي عليه أن يُباشر الأسباب، وأن يبتعد عن أسباب الحرمان، حرمان خيرات الدنيا، وحرمان أيضًا خيرات الآخرة بتعطيل الأسباب زعمًا أنه متوكلٌ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أيضًا من أراد أن يرزقه الله العلم النافع، وأن يفقهه في الدين، وقال: العلم بيد الله، إن كتب الله لي علمًا سأكون من كبار العلماء، لكنني لن أطلب العلم، ولن أجالس العلماء، ولن أحفظ القرآن، ولن أحفظ حديثًا، ولن أفعل شيء من ذلك، هل يحصل علمًا؟ هذا ينطبق عليه قول الشاعر:

تَمَنّيتَ أن تُمْسِي فَقِيها مُنَاظِرا ** بغَير عَناء، والْجُنون فُنون!

وليس اكتسابُ المال دون مَشَقّة ** تلَقّيْتَها، فالعلم كيف يكون؟

لا بد من فعل الأسباب، عندما تدعو الله في الصباح بالدعاء المأثور: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا**»، كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يواظب على هذه الدعوة كل صباح، «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا**»، كل يوم بعد صلاة الفجر كان يواظب عليها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ماذا ينبغي على العبد بعد هذه الدعوة؟ لو أن إنسانًا بعد صلاة الفجر دعا بهذه الدعوة: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا**»، ثم سحب الوسادة وفتح المكيف ونام إلى الظهر على وسادته، تأتيه هذه الأشياء في الوسادة؟ تنزل عليه العلوم النافعة، والأرزاق الطيبة، والأعمال الصالحة وهو نائم؟ لا، لا بد من فعل الأسباب، ولهذا الرزق بيد الله، رزق العلم، رزق المال، رزق الولد، الأرزاق كلها بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن لا بد أن يباشر العبد أسباب، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [سورة الملك، من الآية:١٥]، ما قال: اجلس في مكانك، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾، لا بد أن يباشر العبد السبب الذي ينال به الرزق، وهذا واضح في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو**»، ما جلست في وكرها وفي مكانها، قال: «**تغدو خماصًا وتعود بطانًا**».

أيضًا لا بد من المتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بد أن يُباشر الأسباب، وهنا بعض الطرقية وأهل الضلال يعطلون الأسباب، ويقتلون في الناس فعل السبب، ويدخلونهم في نوعٍ من الدروشة، ونوع من الضياع معطلين للأسباب ويقولون كلمة يضعونها في غير بابها، يقولون: الرزق على الله، نعم الرزق على الله، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في القرآن في آيات كثيرة مباشرة الأسباب، وأن العبد لا بد أن يُباشر السبب، المتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يضع البذر في الأرض ويسقيه بالماء ويتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو المتوكل على الله حقًا، ولهذا لما جاء نفر في زمن عمر إلى الحج، وجاءوا بدون زاد، قالوا: نحن المتوكلون، جاءوا من بيوتهم بدون زاد، قالوا: نحن المتوكلون، هل هذا هو التوكل الذي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده به؟ حاشا وكلا، المتوكل هو الذي يضع بذره، ويُسقي زرعه ويتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا إذا قرأنا الآيات التي هي: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢١٢]، لا بد أن نضم إليها الآيات التي فيها ماذا؟ فعل الأسباب حتى يتحقق لنا المسلك القويم، والصراط المستقيم في هذا الباب.

قال: (**وكذلكَ يذكرُ أسبابَ الرزقِ، وأنَّه لزومُ طاعة الله ورسولِه، والسعي الجميل معَ لزومِ التقوى**)؛ هذه خلاصة للآيات التي سيذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، (**لزومُ طاعة الله ورسولِه، والسعي الجميل**)؛ أي: في نيل الرزق وكسبه مع لزوم التقوى.

(**كقولِه تعالى**: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[سورة الطلاق، من الآية:٢-٣])؛ تقوى الله سبب عظيم من أسباب نيل الرزق الطيب الحلال.

قال: (**وانتظارُ الفرجِ والرزق**)؛ هذا أيضًا من الأسباب، ألا يقنط ولا ييأس بل ينتظر الفرج ويؤمل الفضل.

قال: (﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[سورة الطلاق، من الآية:٧])؛ إذا اشتدت بالإنسان الأمور لا يقنط بل ينتظر الفرج من وراء هذه الشدة.

(**وكثرة الذِّكرِ والاستغفار**)؛ أيضًا هذا من أسباب الرزق، (﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[سورة هود، من الآية:٣])؛ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[سورة نوح، من الآية:١٠-١٢].

أيضًا الآيات التي فيها -ولم يشر إلى هذا الشيخ- الآيات التي فيها مباشرة الأسباب، أو أنه أشار إلى هذا لكن ما ذكر آيات في المعنى، قال: والسعي الجميل ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[سورة الملك، من الآية:١٥]، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان

يأتي السوق ويشتري ويبيع، ويُباشر الأسباب صلوات الله وسلامه عليه، وهو قدوة المتوكلين، وسيد ولد آدم أجمعين.

قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [سورة نوح، من الآية: ١٠-١٢]؛ هذه ثمرات الاستغفار.

كان أحد السلف وهو الحسن البصري جالسًا، فجاءه رجل يشكو الفقر، قال له: استغفر الله، وجاءه آخر يشكو عدم الإنجاب، قال: استغفر الله، وجاءه ثالث يشكو جفاف بستانه، قال: استغفر الله، فأحد الجالسين عنده، قال: كل من يأتيك تقول استغفر الله؟! يعني ما في شيء آخر؟ قال: لم أزد على كتاب الله، الله يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، فكثرة الاستغفار سبب للرزق، كثرة الاستغفار سبب للإنجاب.

وأنا أروي هنا قصة لما فيها من فائدة، وما كنت لأرويها إلا لذلك، قبل فترة طويلة جاءني شخص من البادية من أهل المدينة، لقيني بعد الصلاة عند باب المسجد، وقال لي: أنا متزوج منذ أكثر من ست سنوات ولم يحصل لي ذرية، وأنا متقطع ومتألم وفي شوق للأولاد، ورغبة شديدة للولد، يقول: فأنا في شدة لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقول: يوم من الأيام في صباح الجمعة قمت في الصباح الباكر وأنا متضايق جدًا من الوضع الذي أنا عليه، يقول: انفجرت على أهلي في البيت، وألقيت اللائمة كلها عليهم، قلت: أنت ما تنجبين، وأنت كذا، ونحن ما نبقى مع بعض، مع أن بيننا محبة ومرتاحون لبعض يقول، يقول: انفجرت عليها، وقلت ما نبقى مع بعض أن تمشين في طريقك وأنا في طريقي، وأصبحت نفسيتي متعبة جدًا في ذاك اليوم، وخرجت من البيت لأصلي الجمعة، وزوجتي في البيت تبكي من المصيبة التي ألمت وتنتظر أن آتي بعد صلاة الجمعة لأطلقها وأفارقها وأن تكون هي في سبيل وأنا في سبيل، يقول: خرجت لأصلي الجمعة، ومررت ببعض المساجد كل مسجد أريد أن أصلي فيه، يقول: تنصرف نفسي إلى أن جئت، يقول: وصليت معك أنا في أحد المساجد أصلي الجمعة إمامًا، يقول: فصليت معك فكانت الخطبة عن الاستغفار، كانت الخطبة ذاك اليوم عن الاستغفار وفوائد الاستغفار، وكنت في تلك الخطبة جمعت آيات وأحاديث في فضل الاستغفار ومكانته، وآثاره على العبد في الدنيا والآخرة، جمعتها وعرضتها في تلك الخطبة يعني لم آتي بشيء جديد، وإنما مثل هذه الآيات عرضتها مثل ما يعرضها أي خطيب، فيقول: فاستمعت للآيات، وكل الشيء الذي كان في نفسي والانفعالات

التي في نفسي يقول: كلها انتهت، وخرجت من باب المسجد وأنا أقول: استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله، مشيت وأنا استغفر، ثم دخلت على زوجي في البيت وقلت لها: ونفسي طيبة مرتاحة، قلت لها: لن نفترق بإذن الله اطمأني، لن نفترق لكن استغفري الله، أكثري من الاستغفار، ولخصت لها موضوع الخطبة، يقول: وأنا الآن جئت أبشرك أن زوجتي حامل، فهذه يعني قصة من قصص كثير تمر على الناس.

فينبغي على الإنسان في أي أمر، وأي مصيبة تواجهه من فقر، من عوز، من دين، من عقم إلى آخره أن يستقبل الاستغفار، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾؛ فالاستغفار سبب عظيم من أسباب الرزق، طاعة الله وطاعة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سبب عظيم من أسباب الرزق، إبعاد المنكرات والآثام والمعاصي التي توجد في البيوت هذا من أسباب البركة، ومن أسباب الرزق، مباشرة السعي الجميل، ومباشرة الأسباب الطيبة التي أمر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هذه أيضًا سبب من أسباب الرزق، الرزق بيد الله جَلَّ وَعَلَا وأمرنا الرزاق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذو القوة المتين أن نباشر الأسباب التي ننال بها رزقه وفضله ومنه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأخبرَ أنَّ الاستغفارَ سببٌ يُستجلَبُ بِهِ مغفرةُ الله ورزقهُ وخيره، وضِدُّ ذلكَ سببٌ للفقرِ والتّيسيرِ للعُسْرَى، وأمثلةُ هذه القاعدة كثيرة، قدْ عرفتَ طريقها فالْزَمْهُ).**

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمدٍ وآله وصحبه.